

تجليات الاغتراب في شعر صلاح عبد الصبور

أ. متقدم الجابري

جامعة باتنة

الملخص:

إن مظاهر الحزن والقلق وفقدان التوازن الفكري والإجماعي، هي تجليات مختلفة لمظهر واحد هو الإغتراب، فالمتخلف العربي سوا عاش في ظل الاستعمار أو في ظل أنظمة مصادرة للحرية يعاني كل أنواع الضياع، يصبح رقما من أرقام المدينة يفقد فيها إنسانيته فيصبح عاجزا عن التواصل مع المجتمع ومع ذاته المعطلة، وصلاح عبد الصبور باعتباره شاعرا من جيل الرواد الذين واجهوا صراعات مريرة مع الاستعمار ومع الأنظمة الموالية له والأنظمة القمعية. تجلت مظاهر الإغتراب عنده بصور مختلفة مع المرأة ومع السلطة ومع الذات ومع الواقع والمجتمع الذي يعيش فيه، فهناك قطيعة تامة معه.

Les aspects de l'angoisse et du stress, et la perte de l'équilibre idéologique et social sont des paramètres différents d'un seul aspect qu'est « l'étrangeté »

Le cultivé arabe, soit qu'il a vécu le colonialisme, ou dans des systèmes politiques totalitaires subit tous genres de perte, c'est pour cela qu'il devient incapable de se communiquer avec la société et soi-même.

Salah Abdessabour en tant que poète de l'avant-garde, a vécu des conflits intenses envers le système politique complice.

Les aspects de l'étrangeté se décillent dans des types plus ou moins différents et cela envers la femme, le pouvoir, la réalité, la société dont il vit et soi-même, ce qui engendre une rupture totale.

قبل مناقشة قضية الاغتراب عند صلاح عبد الصبور لابد لنا أن نعرض موجزا لمعاني هذه الظاهرة والآراء التي دارت حولها حتى يمكننا الدخول إلى عالم صلاح عبد الصبور لكونه شاعرا عربيا له جذوره الضاربة في الشعر والتراث القديم .

بالرغم مما كتب حول مفهوم الاغتراب فلا يزال المصطلح غامضا ونادر ما يتفق الباحثون على تحديده ، إذ يذهبون مذاهب مختلفة في تعريفه ويخلطون بين أنواعه ونتائجه وأنماطه السلوكية .

ولعلي الجذور الأولى لمفهوم الاغتراب جذورا يونانية " ومن هنا كان أقدم مما كتب هيجل وماركس ، فهناك ما أشار إلى وجود هذا المفهوم في الفكر اليوناني القديم ، كثر من مؤرخي الفلسفة يردون الفكرة كتابات أفلاطون ونظريته عن (الفيض) ويتبعون ظهورها في الافلاطونية الحديثة (أفلاطون وعالم المثل) وانتقالها إلى اللاهوت المسيحي ومعالجتها في كتابات العديد من الفلاسفة الاجتماعيين في أوروبا وخاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر⁽¹⁾))

فالفكر الغربي هو السباق إلى بحث فكرة الاغتراب وتتبع أصولها ومنابعها الأولى ((وقد ظهر ذلك في كتاب (LEWIS MORGAN) العالم الانثروبولوجي في القرن التاسع عشر تحت عنوان (المجتمع القديم) (SOCIETY ANCIENT) وهو الكتاب الذي اعتمد عليه انجلز وماركس اعتمادا كبيرا فيما بعد⁽²⁾))

وقد كان المجتمع بظروفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتهم الأول لإحداث هذا الاغتراب بما فيه من أزمات ، ومتناقضات ، وظهرت مفاهيم دلالية لمعنى الاغتراب سنحاول إعطاء نبذة لكل مفهوم .

1- الاغتراب بمعنى الموضوعية : وهي نظرة الفرد للآخرين كشيء مستقل عن نفسه بصرف النظر عن طبيعة العلاقات التي تربط بهم.⁽³⁾

2- الاغتراب بمعنى انعدام الغاية: ويفسر مفهوم الاغتراب هذا المعنى من حيث ضياع الغاية بالنسبة للفرد أو ضياع الهدف.⁽⁴⁾

- 3- انعدام القدرة والسلطة : وهو حالة اللاقدرة عند هيجل وماركس بمعنى أن الإنسان يعجز عن تحقيق ذاته , ولكي يتمكن العقل من تحديد ذاته الفضلى فلا بد من تجاوز عجزه بالتغلب عن نفسه والسيطرة على مخلوقاته⁽⁵⁾
 - 4- تلاشي المعايير: ويبنى عليها مفهوم العالم الاجتماعي الفرنسي دوركايم إذ يقوم على فكرة القيم والمعايير الاجتماعية بحيث لا يتمكن من السيطرة على السلوك الإنساني وضبطه⁽⁶⁾
 - 5- العزلة ISOLTION : وهو احساس الإنسان المفكر أو المثقف بوجوده بين أناس لا يواكبونه فكريا أو ثقافيا مما يداخله التباعد بين فكره وأفكارهم⁽⁷⁾
 - 1- اغتراب عن النفس(الذات) بمعنأ أن الإنسان لا يستمد الكثير من العزاء والرضا والاكتفاء الذاتي من ألوان النشاط الذي يقدم به ويفقد صلته بذاته الحقيقية , ويصبح مع الزمن مجموعة من الأدوار والسلع ولا يتمكن من إن يكون نفسه إلا في حالات نادرة⁽⁸⁾
- وبما أن الاغتراب ظاهرة إنسانية توجد في مختلف أنماط الحياة الاجتماعية وفي كل الثقافات وهو من المفاهيم الفكرية الحديثة , فان جذوره ليست وليدة الحياة المعاصرة فهي تمتد إلى العصور القديمة ولها مظاهرها في الآداب العالمية ومنها الأدب العربي الذي عرف أنواعا مختلفة من الاغتراب لدى كثير من أعلامه في مراحل مختلفة , فالذي يراجع ديوان الشعر العربي كله منذ بداياته الأولى في العصر الجاهلي حتى هذه المرحلة التي نعيشها في العصر الحديث , يجد أن تجربة الاغتراب عن الأوطان والحنين إليها من أضخم التجارب وأكثرها أصالة وصدقا , والأوطان لديها لا يقل عن الوفاء للنفس.
- ومع بداية النهضة في المشرق العربي ونتيجة لاحتكاك العرب بالمستعمرين وحضارتهم بدأت الإرساليات العربية إلى هذه الدول ليستفيدوا من علمهم ويقفوا على ما وصلت إليه الحضارة الغربية في تلك الفترة من تقدم في كافة المجالات ومن بينها المجال الأدبي وقد كان لاحتكاك الأدباء العرب بالآداب الأوروبية أثرا واضحا تجلى في كتابتهم الأدبية وخاصة أدباء المهجر الذين تركوا بصمات واضحة في الأدب العربي

وبالأخص في تناولهم لقضية الاغتراب ((فقد تأثروا إلى حد كبير بالأدب الرومانسي الأمريكي وخاصة ديوان " أوراق العشب " (THE LEAVES OF GRASS) "لويت ويتمان" وقد قلد المهجريون هذا الشاعر الأمريكي في كثرة الحديث عن النفس وتأملاتها وفي الكلام عن الضمير والوحدة في نزعتة الصوفية))⁽⁹⁾

وقد تأثر أدباء المشرق العربي بشعر المهجر تأثرا كبيرا ظهر ذلك جليا في أشعارهم وكتابتهم كإبراهيم ناجي ومي زيادة وعلى محمود طه وغيرهم من الشعراء الرومانسيين في تلك الفترة.

أما في الشعر العربي المعاصر فنجد بصمات التأثيرات الغربية واضحة في شعر الشعراء وخاصة في قضية الاغتراب: ((ويقال كذلك أن النزعة الحزينة في شعرنا المعاصر ليست الا نوعا من التأثير باحزان الشاعر الاوربي الحديث الذي عاين طغيان الحضارة المادية على الروح الغربي خاصة في القرن العشرين , ولا يمكننا في الحقيقة أن ننكر التأثير المباشر وغير المباشر لشعر (ت. س . اليوت) وهو يتسم قمة الموجة الناعية على الحضارة الأوروبية المعاصرة وإفقار الروح فيها - خاصة قصيدتيه المشهورتين " الأرض الخراب " وقصيدة "الرجال الجوف"))⁽¹⁰⁾

ويبدو تأثير " اليوت " واضحا في التيارات الفكرية للشعر المصري المعاصر حين نتأمل ما أشاعه من أفكار التشاؤم السأم واغتراب ذات الإنسان المتفردة في مجتمع "الأرض الخراب " و"الرجال الجوف" الذين هم تماثيل مليئة بالقش.

((ولعل تأثيره الفكري يبدو أشد وضوحا في تيارين من تيارات "الاغتراب " أحدهما تيار الاغتراب الرافض للمجتمع الصناعي الذي نلحظه في الشعر المصري المعاصر , والتيار الآخر يبدو في تيار السأم والعبث والاغتراب الرافض للعالم .

ذلك التيار الذي يبدو في كثير من القصائد التشاؤمية التي تفيض بأحزان الإنسان المغتراب السأماني الذي يحس بعبث الحياة وعقم التكرار الرتيب , وضياح ذاته وفرديته في مواجهة قوى لا قبل له بمواجهتها))⁽¹¹⁾

ويعتبر شعراء مدرسة الواقعية الحديثة أمثال البياتي وسعدي يوسف في العراق وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي في مصر , ومحمد الفيتوري في السودان , ومحمد الماغوط في سوريا , إضافة إلى كتاب الرواية أمثال نجيب محفوظ في قصته "أولاد حارتنا" والطيب الصالح في قصته "موسم الهجرة إلى الشمال" وغيرهم يعتبرون جميعا صورا بارزة في العصر الحديث تشهد علي اغتراب الإنسان العربي الذي هدته الكوارث . ونال منه القهر بأنواعه منالا عظيما , والشاعر صلاح عبد الصبور شاعر عربي عانى الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي عانت منها الشعوب العربية وبالتالي انعكست في شعره ملامح الاغتراب والضياع مثل كثير من معاصريه من الشعراء الذين عانوا الظروف نفسها وعبروا عنها في أشعارهم , وان كنا نحس ملامح النزعة الاليوتية في إحساسه بالغربة والقلق والسأم الذي عانى منها الإنسان الأوروبي في مجتمع المدينة الصناعية ((فسأم "اليوت" من الناحية المادية في هذا العالم أو "الأرض

الخراب " قد يكون من العوامل التي أثرت في "صلاح عبد الصبور" وعمقت فيه ذلك الاتجاه إلى السأم والاغتراب الذي ينتشر كثيرا في شعره.)) (12)

فبالرغم من أن النغمة الرئيسية في شعر صلاح عبد الصبور هي الحزن فان الشعور بالغربة والضياع يمثل بعدا آخر من تجربة الشاعر الحزينة فهي ليست تجربة مقصورة على الإحساس بالغربة والضياع فقط, بل ه تمتد إلى الصراع القائم بين الذات والوجود ((إن محور الشعور بالغربة والضياع هو في الحقيقة . تفريع عن المحور الأساسي العام , محور الذات والوجود, أو هما يتوازيان على مستويين مختلفين)) (13)

فحينما تصطدم الذات بالوجود , فإنها تعجز على تحقيق تطلعاتها وأحلامها لأنها عندئذ تتحرك وتسير وحدها , وتظل محبوسة في إطارها الضيق مادامت تؤمن بمنطقها ونظرها الخاصة في تقييم الوجود , ويترتب عن هذا إحساس الشاعر بالغربة والضياع وهذا مانلمسه في قصيدة "رحلة في الليل" (14) التي تتسم بحزنها النابع من غربة الشاعر وضياعه في متاهات الوجود , فالليل الذي يفتتح به الشاعر قصيدته , ليس هو الليل الرومنسي الذي

يعذب المحبين ، ولا هو الليل المضني الذي يقاسى منه المرضى ، فهذه ألوان جزئية من الليل الأكبر الذي يتمثل في افتتاحية صلاح عبد الصبور :

الليل يا صديقتي ينفضني بلا ضمير

ويطلق الظنون في فراشي الصغير

ويثقل الفؤاد بالسواد

ورحلة الضياع في بحر الحداد

فنحن مقبلون إذن على ليل شامل ، ربما أحسسنا فيه بعذاب الحب ، أو وحشة المرض ، أو سيطرة اللذة ، ولكن هذه كلها ليست إلا أحساسات أولية تواجهنا في هذا المقطع من القصيدة ، وما هي إلا ألوان للإطار الخارجي الذي يضم ليل صلاح عبد الصبور فهذه المشاعر كلها بمثابة المدخل التمهيدي إلى هذا الليل الكبير.

فحين يقبل المساء ، يقفر الطريق ، والظلام محنة الغريب

يهب ثلة الرفاق ، فض مجلس السمر

" إلى اللقاء " - وافترقنا - " نلتقي مساء غد "

" الرخ مات - فاحترس. الشاه مات "

" لم ينجه التدبير " ، أني لاعب خطير .

" إلى اللقاء - وافترقنا - " نلتقي مساء غد .

الليل هنا أعمق من الظلمة التي تسبق الفجر لانه ليل لأفجر له. فعذاب الليل لا يرادف السهاد ، وإنما هو إحساس بالنهاية التي يعلنها تعبير الوداع " إلى اللقاء " فهو يرادف الغربة في الوجود ، فالظلام محنة " الغريب " وهو يرادف الموت ، ولعبة الشطرنج في نظر صلاح عبد الصبور ماهي إلا لعبة " الموت والحياة " ، فالليل عند صلاح عبد الصبور وهو عذاب المصير والغربة والموت.

وفي فراشي الظنون لم تدع جفني ينام
مازال في عرض الطريق تائهون يظلمون
ثلاثة أصواتهم تنداح في دوامة السكون كأنهم سيكون
لاشيئ في الدنيا جميل كالنساء في الشتاء
"الخمر تهتك السرار"
"وتفضح الازار"
"والشعار....والدثار"
ويضحكون ضحكة بلا تخوم
ويفقر الطريق من ثغاء هؤلاء.

يتحول الليل عند صلاح الصبور إلى رمز للغربة والضياع , فالمملذات المرغوبة
كالنساء والخمر , لا تجلب سوى الضحكات القصيرة الأجل, فهي تزول بسرعة وكأنها
أحلام , فإحساس الشاعر هنا إحساس كوني وكياني معا وهو رمز للعلاقة بين الوجود
والذات , ولهذا كان الحوار تجسيدا دقيقا لكل ما اعم وأكثر شمولا , من وداع الأصدقاء كل
مساء , إلى لعبة الشطرنج إلى الضحكات العابرة

وفي قصيدة "الظل والصليب"⁽¹⁵⁾ يعبر صلاح عبد الصبور عن اغتراب إنسان
هذا العصر الذي يحيا زمان السأم , فكل شيء أصبح بلا قيمة حتى المتع الجنسية لم تعط
للإنسان الحزين أدنى إحساس بالقيمة :

هذا زمان السأم
نفخ الارجيل سأم
ديب فخذ امرأة ما بين إليتي رجل سأم
لاعمق للألم
لأنه كالزيت فوق صفحة السأم
لاطعم للندم

لأنهم لا يحملون الوزر إلا لحظة
ويهبط السام
يغسلهم من رأسهم إلى القدم
طهارة بيضاء تنبت القبور في مغاور الندم
ندفن فيها جثث الأفكار والأحزان, من ترابها

في هذا المقطع إدانة لواقع الشاعر الذي يعيش فيه دون هدف, لأن كل شيء ,
أصبح بلا قيمة لإنسان هذا العصر سريع السأم , سريع النسيان, فان أصابه ,غسله سامه
من ندمه مانحا إياه طهارة كاذبة يدفن فيها أفكاره وأحزانه.
فهذا الواقع الراكد السامان الذي يلقي بظلاله الكثيرة على ذات الشاعر ويشده الى قاع
السام والرتابة والاحساس بالغرابة والضياع , وبحول العالم من حوله إلى تماثيل إنسانية تفتقد
كل الجوانب المشرقة بالتواصل الانساني فهذا الاختلاف بين الواقع وبين التطلع هو الذي
جعل الشاعر يشعر بغيرته وهو الذي أوجد في نفسه نوعا من الحزن والنفور والرفض المطلق
لما هو كائن وموجود لأنه أضاع كل شيء.

أنا رجعت من بحار الفكر دون فكر.
قابلني الفكر , ولكني رجعت دون فكر
أنا رجعت من بحار الموت دون موت
حتى أتاني الموت, لم يجد لدي مايميته
وعدت دون موت

فإنسان هذا العصر إذن خاو , فقد طاف في سماوات المعرفة , ورجع دون معرفة ,
وغاص في بحار الفكر وعاد دون فكر , فقد ذهب وعاد دون أن يضيف إلى قلبه أو عقله
أو معرفته شيئا, وحين أتاه الموت وجدته ميتا لأنه لم يجد فيه شيئا يميته , نتيجة ثقل الواقع
وإحساس الكائنات بعجزه وإحباطه في مواجهته لأنه رآه وجود ظل يحياه الإنسان بلا آماد
بلا أبعاد.

أنا الذي أحيا بلا أبعاد

أنا الذي أحيا بلا آماذ

أنا الذي أحيا بلا أمجاد

أنا الذي أحيا بلا ظل بلا صليب

ومن يعيش بظله يمشي إلى الصليب , في نهاية الطريق

فالذي يحيا بظله يمشي إلى الصليب , لان الظل هو الحياة الزائفة التي يعيشها الإنسان دون تحقيق هدف , فيعيش في معزل عن الحياة وحيدا دون أن يحقق ذاته في المجتمع , ويبقى بعدا عن التجربة والمغامرة , يحس بوجوده يتهاوى في الفراغ لا تسنده عقيدة أو قيمة أو نظرية , إنسان بلا صليب ينزف عليه دماء التجربة فيكسب حياته دلالة ولوجوده معنى, انه ميت بالحياة ليصبح السأم هو الصليب الجديد لإنسان هذا العصر واغترابه.

إنسان هذا العصر سيد الحياة

لأنه يعيشها سأم

يزني بها سأم

لقد تحول كل شيء إلى مرارة مخزنة حطمت الإحساس بالرضا والقبول وفتحت المجال أمام مباحث التمرد والغربة , وأصبح السأم سحنا لإنسان هذا العصر فالرغبة في الحياة يدفع إليها السأم ((فالحياة والموت ليسا إلا وجهتين لتجربة واحدة هي تجربة السأم , السأم هو الحقيقة , في ضوئه نستطيع أن ندرك معنى الحياة والموت على السواء))⁽¹⁶⁾ فالسأم هو أحد عناصر موتنا , هو المقدمة التمهيدية إلى مصيرنا البشع , والادهى إن المقدمة أكثر بشاعة من النتيجة , ومن هنا كان اغتراب إنسان صلاح عبد الصبور الذي هده السأم, يتلوه الأنف المجدوع في المرأة ثم الملاح الصريع, فهذه هي الخاتمة.

هذا زمن الحق الضائع

لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله

ورؤوس الناس على جثث الحيوانات
ورؤوس الحيوانات على جثث الناس
فتحسس رأسك

إذا كان هذا الزمن زمن السأم , وخواء الإنسان , وموته اليومي , فهو أيضا زمن يضيع الحق فيه , وتضع الحقيقة , فقد اختلطت فيه الأشياء وتداخلت , وتشوهت الكائنات فرؤوس الناس على جثث الحيوانات , ورؤوس الحيوانات على جثث الناس , والمقبول لا يعرف من قاتله الحقيقي ومتى قتله , فقد يكون الإنسان هو قاتل نفسه , وقد يكون الآخرون هم القتلة , اختلت كل الموازين وتلاشت القيم والمعايير التي تضبط المجتمع , وأصبحت الحياة ميدانا تتداخل فيه قوى الخير والشر في الإنسان , وحين يتداخل الخير والشر تضيع الحقيقة .

((وليس الخير والشر قيمتين مطلقتين في هذا السياق , فزمن الحق الضائع هو نفسه زمان السأم , ومن ثم نعود إلى الفكرة الأولى فنجد أن ذلك التداخل بين الخير والشر في بنية الإنسان ليس إلا انعكاسا لتداخل الحياة والموت فيه لتلازم الظل والصليب))⁽¹⁷⁾

إن الاغتراب في هذه القصيدة ليس اغترابا مرضيا ولكنه علاقة جدلية تقدم على استخدام الأقنعة والرموز الصوفية من أجل إبداع الواقع , ومن أجل "التلوين التمكين" للكشف على حقيقة الواقع

وتمثل "أغنية للشقاء"⁽¹⁸⁾ إحساسه العميق بالغرابة وقلبه المرتجف من الموت والوحدة, وهو في صقيع وحدته هذه , يرتجف قلبه ويحس بديب خطوات الذبول فوق أشلائه.

ينبني شتاء هذا العام أنني أموت وحدي
ذات شتاء مثله , ذات شتاء
ينبني هذا المساء أنني أموت وحدي
ذات مساء مثله , ذات مساء

وأن أعوامي التي مضت كانت هباء
وإنني أقيم في العراء
ينبئني شتاء هذا العام أن داخلي...
مرتجف بردا
وأن قلبي ميت منذ الخريف
قد ذوى حين ذوت
أول أوراق الشجر
... ..

ينبئني شتاء هذا العام أن هيكلي مريض.
وان أنفاسي شوك
وأن كل خطوة في وسطها مغامرة
وقد أموت قبل أن تلحق رجل رجلا
في زحمة المدينة المنهمة
أموت لا يعرفني أحد
أموت لا يبكي أحد

تبدأ القصيدة برؤية غامضة وشعور مبهم استولى على ذات الشاعر واستبد بها , قد يكون الخوف من الموت وحيدا , وقد يكون الموت في حد ذاته , فالشتاء لحظة من الزمن استولي عليه فيها الشعور بالموت , لكنها ليست لحظة منفصلة عن الزمن , فان لم يحدث الموت في شتاء هذا العام فان الشتاء يأتي لا محالة كل عام . وهنا يكون الموت "ذات شتاء " والشتاء ماهو إلا المقابل الموضوعي لنفسية الشاعر المرتجفة , بما فيه الإحساس بالرجفة وتحجر القلب (وهي مقدمات الموت) وحن عاد الشاعر إلى النبوة مرة أخرى التماسا لمزيد من التكشف انتابه شعور ثان غير الشعور بالموت . فتحس انه ليس جزءا من الموت في حد ذاته ولكن الذي نبت في أعماقه المخاوف انه سيموت في ارض غير أرضه , لن يعرفه فيها احد ولن يبكي عليه احد, فالشاعر يتقرب الموت كل لحظة ربما (يموت قبل إن تلحق

رجل رجلا) فالموت المفاجئ في زحمة المدينة لا يسمح حتى بالالتفات إليه , فكل ما تسمح به هذه الزحمة أن يقول الصحاب للصحاب الشاعر أنفسهم وهم في مجلس سمرهم:

مجلسه كان هنا وقد عبر

فيمن عبر...

يرحمه الله...

فالموت والوحدة والغربة, هي المشاعر التي صنعت نبؤة الشتاء أو هي وجوه مختلفة لها , وفي المقطع الأخير من القصيدة نرى أن سبيل الشاعر الوحيد للخروج من مشاعر الموت والوحدة والضيق هو أن يعانق الحياة وان يختزن من طاقتها ما يعينه على قسوتها , ومواجهة نفسه ومصيره

نبغي شتاء هذا العام أننا لكي نعيش في الشتاء

لا بد أن نخزن من حرارة الصيف وذكرياته ... دفئا

لكن الشاعر لم يدخر من الحياة ما يعينه على قساوتها عندما يدور الزمان دورته , فيتسرب الشتاء وما يصحبه من مشاعر الموت والوحدة والضيق إلى نفسه.

لكنني بعثرت كالسفيه في مطالع الخريف

كل غلالي , كل حنطني وحبي

لكن الشاعر لا بد وأن يواجه مصيره الذي يخاف منه , وأن يموت غريبا.

كان جزائي أن يقول لي الشتاء أنني

ذات شتاء مثله ...

أموت وحدي

ذات شتاء مثله , أموت وحدي

وفي القصيدة "اغنية الليل" (19) يحاول الشاعر من خلال محبو بته (الرمز) أن يقدم لنا مأساته واغترابه , ويجسد لنا إحساسه من خلال القصيدة ككل وعبر الزاوية التي اختارها كمنطلق للتعبير عن معاناته وتجربته.

الليل سكرنا وكأسنا
ألفاظنا التي تدار فيه نقلنا ونقلنا
الله لا يحرمي الليل ومرارته.

من البداية يقدم لنا الشاعر الإطار العام الذي تدور فيه القصيدة , وهو الليل السادر كالأبدية , هو الكأس الخمر , وهو الشيء الوحيد الذي علينا أن نعيشه وأن نجتر مرارته , ثم نتقل من الإطار الذي تدور فيه الأحداث (الليل) إلى مأساة محبو بته بكل ملامحها وجزئياتها.

وان أتاني الموت , فلأمت محدثا أو سامعا
أو فلأمت , أصابعي في شعرها لجعد الثقيل الرائحة
في ركني الليلي , في المقهى الذي تضئّه مصابيح حزينة
حزينة كحزن عينيها اللتين تخشيان النور في النهار

الشاعر بالرغم من استمراره لحياة الليل , مازال يشعر بالاغتراب فيه, مازال يرتجف من جهامة لونه الكثيب . وهو الذي يخشى الموت في هذه الغربة المريعة , فهو يحاول بشق الطرق أن يبعد شبح الليل وكآبته, ولما وجد أن محاولته عقيمة ومستحيلة , أراد أن يموت محدثا أو سامعا , أو يموت وأصابه تحوس في شعرها لجعد الثقيل الرائحة , ولأن شبح الموت واقف لا يريم فليس على الشاعر إلا أن يجتر أحزانه في ركنه الليلي بالمقهى الذي تلوح عينيها عبر مصابيح الحزينة , وهو إذ يلج بيسر في كل سراديب مأساتها بصورة تتجاوز بها حدود المحبوبة الانسانية إلى آفاق المحبوبة الرمز:

عينان سوداوان

نضاحتان بالجلال لا لمرو الأحران

مرت عليهما تصارييف الزمان

فشالتا من كل يوم اسود ظلا

عينان سردابان

عميقتان موتا

غريقتان صمتا

فان تكلمتا

تندتا تعاسة ولوعة ومقتا

في هذا المقطع هيأنا الشاعر لالتقاط أبعاد مأساته وذلك عبر حد قتي محبوبته اللتين شالتا من كل يوم أسود ظلا , فتكشفتا عن سردابين عميقين للموت والصمت والتعاسة , فهو ينقلها من الإطار ويتوافق معه , ليقدم لنا دفعة واحدة جزئيات الموقف الذي نسج خيوط المأساة.

ينكشف السرداب حينما تدق الساعة البطيئة الخطى

معلنة أن المسا قد انكشف

تقول لي العينان:

"يا عاهري المتوج الفودين بالحديد والحصى"

"ياملكي الغريب الاسم المزيف السمات"

"أحببت فيك رؤية رأيته منذ الصغر"

"وكان يشبهك"

"وليس أنت ... ليس أنت"

ترتوي مأساة الحبيبة من الفاجعة التي تعيشها , فقد خاب أملها في انتظار الحبيب الغائب وعانقت الحبيبة أبعاد حلمها , لقد نذرت عمرها ليتحقق الحلم ولما لاح الحبيب الذي انتظرته طويلا كانت فاجعتها أشد , ذلك أن المحبوب جاء مسخا , فهو

ليس الذي يجتر على مناضد الليل مأساة الحببية المنكوبة , صحيح أنه يشبهه لكنه "ليس أنت ؟ ليس أنت ؟" أيها الشاعر فماذا تفعل الحببية العميقة العينان ؟ إنها لا تملك إلا أن تهتف .

"يا عاهري ,

"يا خدعتي ,

"يا قدرتي"؟

في الساعة الليلية الأخيرة"

"خذني إلى البيت , فإنني أخاف أن ييلني الندى"

"تذوب أصباغي

ويبدو قبح وجهي "

وتصمت العينان , ترجفان

عميقتان صمتا

غريقتان موتا

لم تملك الحببية إلا أن تستسلم في خزي لمصيرها المؤلم , فهي لا تملك إلا الانصياع المر فهي تتوسل إليه أن يأخذها إلى البيت حتى لا يتل وجهها بندى الفجر فيغسل الأصباغ وتبدو حقيقتها , ويطل وجهها قبيحا عاريا من المساحيق كثييا , ثم تصمت العينان من جديد عميقتان صمتا غريقتان موتا.

ويعود الشاعر إلى الإطار العام للإحداث بعد أن قدم لنا جوهر المأساة في ألفاظ حادة عارية من كل زخرف وشديدة الالتصاق بلغة الحياة يعود بنا إلى الليل والأحزان , وحينما يعود إليه من جديد فانه يقدمه في صورة اشد تركيزا وأعمق مأساوية

الليل ثوبنا , خبائنا

رتبتنا , شارتنا , التي بها يعرفنا أصحابنا

لا يعرف الليل سوى من فقد النهار

هذا شعارنا

لا تبكنا , يا أيها المستمع السعيد

فنحن مزهوون بانخزامنا

بعد أن كان الليل هو الخمر والكأس في بداية القصيدة , أصبح الثوب والرتبة والشارة المميزة والخباء , ولا يعرفه إلا من النهار , وبالرغم من انه تلبس الحياة تماما إلا أن المهزومين مزهوون بانخزامهم , فهذا التعارض الحاد يثري القصيدة ويفجرها حركة ودينامكية .
وفي قصيدة "أحلام الفارس القديم " (20) يمتزج أسى الماضي الذي يحضر كل لحظة ممزوجا بالندم , والخوف من الحاضر الذي تداعبه الهزيمة فيه :

قد كنت فيما فات من أيام

يا فتنتي محاربا صلبا , وفارسا هممام

من قبل أن تدوس في فؤادي الأقدام

من قبل أن تجلدي الشموس والصقيع

لكي تذلل كبريائي الرفيع

فاتساع الهوة بين واقع الشاعر وبين أحلامه عمق إحساسه بمأساته فلهزيمة تستدعي الهزيمة ويعيش الإنسان في ظلها فاقدا لوجوده وأحلامه والأحلام هي الأخرى تتنامى ما لم تتحقق علي ارض الواقع وبالتالي تعمق إحساسه بالغرابة وتحمل بين طياتها كل المتناقضات التي تمزق الشاعر :

رأيت في المنام أنني أقود عربية

تجرها ست من المهاري

تجوب في الوديان والصحاري

وفجأة تحولت خيولها قططا

تمشي إلى الوراء , وجهها , عيونها تنص لي شرارا⁽²¹⁾

في هذا الحلم نجد الخيبة التي مني بها الشاعر في حياته , قد أحالها لا شعوره إلى حلم فاجع يعمق إحساس الشاعر بهزيمته ويزيد قلبه الخائف ارتجافا .
وفي قصيدة " مذكرات الصوفي بشر الحافي " ⁽²²⁾ يلتقط صلاح عبد الصبور هذه الشخصية العربية الجلييلة ويستعملها قناعا ليحاول من خلاله الكشف عن عصره الذي اضطرت أموره بأكثر مما كانت عليه في عصر بشر الحافي ولذا فانه لا يحضرها على حالها القديم بل يبعثها على حال جديد يلائم عصر الشاعر نفسه , وهذا الكشف هو أول المواجهة لوحش المدينة التي أصبح الشرفاء يقيمون فيها غير راضين عما يحدث , ويعلن صوت " بشر الحافي " عن هذه الحالة .

حين فقدنا الرضا

بما يريد القضا

لم تنزل الأمطار

لم تورق الأشجار

لم تلمع الأثمار

حين فقدنا الرضا

حين فقدنا الضحكا

تفجرت عيوننا .. بكاء

يحاول الشاعر من خلال هذا الصوت أن يجد سببا لجفاف الحياة العصرية التي يعيش فيها , فحين يفقد الإنسان الرضا بما يريد القضا فقد تحف الحياة تماما وتغشاه مسحة من الكآبة لأن الرضا يجلب السرور وفقد الرضا يفجر البكاء من عيوننا , وأمام فقد الرضا انقلب كل شيء رأسا على عقب, ووصل فساد العصر الى أن امتد على بطون الحبالى فشوه وأصبح الشعر ينمو في مغاور العيون . والذقن معقود على الجبين :

فشوهت أجنة الحبالى فى البطون
الشعر ينمو فى مغاور العيون
والذقن معقود على الجبين

وأمام انقلاب موازين الحياة واغتراب الإنسان فى متاهات المدينة , فما على الإنسان
إلا أن يعطل حواسه حتى ينقطع عن الواقع انقطاع البوذي :

أحرص ألا تسمع
أحرص ألا تنظر
أحرص ألا تلمس
أحرص ألا تتكلم
قف؟

((يحول الصوفي (الشاعر) أن يستجيب لإدارة الحصار ولكنه لا يستطيع لأن إدارة
الانتماء التي تملؤها أقوى بالرغم من ضعفها , كيف لا يتكلم من حياته الكلام , إن اللغة
تمتع من ينبوع عميق وإذا حاول الصوفي خنقها فان كفه الصغيرة لن تقوى علي القبض
عليها , وسوف يتسرب الكلام من بين أصابعها ليملاً الرمال بالكلام الذي يخصبها))
(23)

و حين ينزل (بشر) إلى السوق مع أستاذه (بسام الدين) وهي شخصية اخترعها
صلاح عبد الصبور لم يرد ذكرها في أخبار بشر الحافي التراثية , يطلب الأستاذ (بسام) من
تلميذه (بشر) أن يتحلى بالصبر , وهو حل جديد مختلف عن الخنق بحبل الصمت المبرم ,
وعن الموت بالتخلي , وبالرأي المخلص يدفع الشيخ تلميذه إلى معاودة التأمل من جديد
فسوف يجد الحياة أجمل مما يظن :

ها أنت ترى الدنيا من قمة وجدك
لا تبصر إلا الانقراض السوداء

ويحاول بشر فيؤكد لشيخه صحة ما يراه من بشاعة الدنيا واغتراب الإنسان الحقيقي من معمة الواقع الجهم المخيف , ففي السوق يرى الحقيقة عارية حيث يقول :

كان الإنسان الأفعى يجهد أن يلتف على الإنسان الكركي (24)

فمشى بينهما الإنسان الثعلب

عجبا...

زور الانسان الكر كري في فك الإنسان الثعلب

نزل السوق الإنسان الكلب

كي يفقأ عين الإنسان الثعلب

ويدوس دماغ الإنسان الأفعى

تؤكد الصورة أن الصراع الإنساني لا يتحكم فيه إلا الوحوش الذين لم يتركوا أدنى فرصة للإنسان الحقيقي , صاحب الواقع وضحيته أن يصارع من أجل استعادته فتنتهي الصورة الحوارية الدامية إلى سؤال صارخ يوجهه بشر إلى شيخه المتفائل :

يا شيخني بسام الدين

قل لي " أين الإنسان ... الإنسان "

شيخني بسام الدين يقول :

"أصبر ... سيحيي"

سيهل على الدنيا ركه"

((وواضح أن بسام الدين يتحدث عن المهدي المنتظر الذي سيأتي في آخر الزمان ويحيل الغابة الظلماء إلى جنة وراقاء, ولكن بشر الحافي يرى مالا راه بسام الدين: يرى أن الإنسان شيء حدث ذات مرة في الماضي البعيد في العصر الذهبي الذي لن يعود أما نحن فقد سقطنا خارج حساب الزمن سقطنا في عالم المستحيل أو عالم اللاوجود الذي لا أمل في النجاة منه)) (25)

الإنسان الإنسان عبر

من أعوام

ومضى لم يعرفه بشر

حفر الحصباء ونام

وتغطي بالآلام

فهذه النهاية تحمل تأكيداً على واقعية الرؤية , لأنها تؤكد وجود الإنسان في الواقع الجاف , فهو في لحظة التأمل المنشودة ينام في الحصباء وتغطي بالآلام , أي أنه يعيش في معمعة الواقع باختياريه

وهو إحساس تام بالضيق تتساوى فيه الإرادة الدافعة والإرادة المعطلة فلا شيء يتغير ولا أمل في التغيير مادامت الأيام تلد نفسها والأنظمة تلد نفسها وهكذا يتبدى لنا اغتراب إنسان صلاح عبد الصبور , اغتراب الصوفي الذي ضاق من قسر الواقع بعد انقلاب حاله لدرجة أصبح من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - معها بوجود الإنسان الإنسان .

وفي قصيدته " مذكرات رجل مجهول " (26) تصبح الأيام سجناً للإنسان في ظل الهزيمة وتشابهه , حتى عندما يفيق على صباح يوم جديد فانه يشعر بالغرابة عن نفسه وعن الأشياء إلى إن يستعيد وعيه فيدرك انه مقبل على يوم مكرور من أيامه

أصبحوا أحياناً لا أدري لي اسماً

أو وطناً أو أهلاً

فقد تحول كل شيء إلى مرارة مخزنة حطمت الإحساس بالرضا والقبول , وفتحت المجال أمام مباحث التمرد والغرابة , وأصبحت الأيام سجناً أبدياً للإنسان . , والأرض وجوداً ملعوناً, القادم إليها مفقود والذي يغادرها مفقود , فهي سجن مفتوح كل شيء فيها مكرور وغامض وسديمي يمشي فيها الإنسان كالأعمى , لا يفرق بين الليل والنهار ولا بين القبح والجمال .

الأرض بغي طامث

دمها يجمد في فخذيهما السوداويين

لا يطهرها حمل أو غسل

من ضاجعها ملعون

وقد نتج عن غربته في ظل الأيام الكثيرة إحساس بالوحدة داخل الوجود المتسع: برغم
رحابته إلا انه يضيق عن نفس الشاعر ويطبق على صدره كما يضيق جلد المريض بالحمى

تعصر قلبي الوحدة في ساعات العصر المبطة

الخطوات

تبدو الدنيا في شباكي

ميتة مسجاة

باهية اللون مكتملة الأصوات

امضي عندئذ , أتسكع في الطرقات (27)

وبعد التسكع في الطرقات غريبا وحيدا يأتي المساء محملا بالمواجهات الحقيقية مع
الحياة والوجود , فلا يجد الشاعر إلا أن ينكفئ كي:

أجدل حبلا من زهوي وضياعي

لأعلقه في سقف الليل الأزرق

أتسلقه حتى أتمد في وجه قباب المدن الصخرية (28)

وتصبح المدينة خضما واسعا , تلتحم فيه مأساة الشاعر بمأساتها , ويجد نفسه فيها
غريبا تائها بدون هدف مثل رسالة بلا عنوان

أحس فيك يا مدينتي المحيرة

بأنني

أظلم من رسالة مغلقة بلا عنوان (29)

وتبدو قائمة سوداء محبطة , توصلد أبوابها في وجه الأعراب , فيصبح فيها الشاعر قطعة
من مشاهدتها اليومية يتشكل بتشكيلاتها لأنه فقد القدرة على امتلاك ذاته وتحقيق
إنسانيته فيها

نصبت مرة على مفارق الطرق
محدودا بأمرت إن أقف
أخذت شكل حجرة
فليلة , ليستريح ظهره لظهرها مسافر مرهق
وليلة ليتركز المحارب المزهو في مدى الأفق
على عظامي المكسورة
ومرة غدوة شجرة

.....

ومرة علقت مرآة على جدار حجره
ومرة نجرت مقعدا
ومرة سبكت مصعدا
ومرة مكبرا للصوت (30)

لقد أصبحت المدينة بصراعاتها المختلفة وضوضائها بوتقة تذوب فيها إنسانية
الإنسان ويصبح قطعة من مكونات لا يملك القدرة على فرض وجوده وتحقيق ذاته
وإنسانيته , ولذلك فإن الشاعر لا يملك القدرة على فرض وجوده وتحقيق ذاته وإنسانيته ,
ولذلك فإن الشاعر يتشكل بتشكيلاته التي هي سمة من سماتها
وتأتي قصيدة " الموت بينهما " (31) لتجسيد مأساة صلاح عبد الصبور التي تكمن
في اغترابه عن نفسه وعن الله والآخرين , وتضعنا وجها لوجه مع الاغتراب:

فأنا منذ زمان , منذ هجرتني شمس عيونك
وألفت الظل الرواغ
أتخفي أحيانا تحت جدار التشبيه
أو في جحر التورية وشق الإيماء

لقد هجر الله عبده وتخلت عنه شمس عيونه , تاركة إياه في الظل يحيا حياة جافة
مفرغة من المعنى الحقيقي للحياة , ولذلك يحدث شرخ داخلي في ذات الإنسان وينقسم
على نفسه :

ماذا تبغيني يارباه
هل تبغيني أن أدعو الشر باسمه
هل تبغيني أن أدعو القهر باسمه

لقد رفض آدم (صلاح عبد الصبور) أمر ربه , إذ في انفاذه مجاهدة صعبة وخطيرة مع
الواقع الذي يعج بالقهر والظلم , ولذلك فانه يطرد من جنة الله ومن رحمته

أخرج منها , فانك رحيم
أخرج منها , فانك رحيم

لقد شوهت العلاقة المقدسة بين آدم وربه وخرج إثرها من الجنة ملعونا مغتربا عن
نفسه وعن ربه , وليس له من مهرب سوى الأرض يجد في صدرها ملجأ يلوذ به من
الصوت الإلهي الذي يطارده

دثرتني, دثرتني
زمليني , زمليني
وخذيني بين تهديك وضميني , فلا يجد
الصوت الإلهي طريقا لصماخي أو عيوني

... ..

دثري .. دثري
زمليني .. زمليني
لا تضيعيني وقد ضاع يقيني

فحين يلحق بعلاقة الإنسان وربه كل هذا القدر من التشويه , يمضي الإنسان في الأرض منقسما على نفسه , وحيدا غريبا متلفعا بأحزانه , يصرخ بضياح يقينه فهل حقا ضاع اليقين ؟ إن الوباء الذي أصاب العالم - وباء الظلم والشر - هو الذي أثار غضبه ومزق مشاعره وأورثه المرارة والحزن , حس الضياح والفقد والغربة دفعه أن يشعر بفقد الإنسان لقيمة إنسانيته وعدم جدارته أو قدرته على التكيف حتى صرخ بضياح اليقين . وهكذا نرى ان كل مظاهر الحزن والقلق وفقدان التوازن الفكر والاجتماعي هي تجليات مختلفة لمظهر واحد هو الاغتراب , فالمثقف العربي سواء عاش في ظل الاستعمار أو في ظل الانظمة القمعية المصادرة لحرية الانسان يعاني كل انواع الضياح , يصبح رقما من ارقام المدينة يفقد فيها انسانيته ويشل فيها تفكيره , فيصبح عاجزا عن التواصل مع المجتمع ومع ذاته المعطلة , وصلاح عبد الصبور باعتباره شاعرا من جيل الرواد الذين واجهوا صراعات مريرة مع الاستعمار ومع الأنظمة الموالية له ومع الانظمة الاقمعية , تجلت مظاهر الاغتراب عنده بصور مختلفة مع المرأة ومع السلطة ومع الذات ومع الواقع والمجتمع الذي يعيش فيه فهناك قطيعة تامة معه .

قائمة المصادر والمراجع

- (1) د. أحمد ابو زيد: مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الاول، ابريل - يونيو 1979 ص 5.
- (2) د. احمد ابو زيد : " تمهيد " مجلة عالم الفكر " ص 8 .
- (3) حسن سعد: الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982، ص 12
- (4) المرجع نفسه ص 11
- (5) بسام فرنجي : " الاغتراب في أدب حلیم بركات " ، مجلة فصول المجلد الرابع ، العدد الاول
اكتوبر - ديسمبر 1983 ص 209
- (6) المرجع نفسه والصفحة نفسها
- (7) المرجع نفسه //
- (8) المرجع نفسه. //
- (9) احمد عودة الله الشقيرات: الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب، دار عمار، عمان، الاردن،
ط 1، 1987، ص 43.
- (10) د. عز الدين اسماعيل : الشعر العربي المعاصر ص 354 .
- (11) انظر : " شعراء المدرسة الحديثة " ، تأليف : (م . ل . رونتال)
ترجمة : جميع الحسيني ، المكتبة الاهلية - بيروت 1923 ، ص 115 .
- (12) د. سعد دعبس : حوار مع قضايا الشعر المعاصر ص 135 .
- (13) د. عز الدين اسماعيل : الشعر العربي المعاصر ص 356 ، 357 .
- (14) ديوان صلاح عبد الصبور : ص 7 .
- (15) ديوان صلاح عبد الصبور : ص 148
- (16) د. عز الدين اسماعيل : الشعر العربي المعاصر ص 274
- (17) نفسه ص 276
- (18) ديوان صلاح عبد الصبور ص 193 .
- (19) ديوان صلاح عبد الصبور : ص 200 .
- (20) ديوان صلاح عبد الصبور : ص 242 .
- (21) قصيدة مذكرات الملك عجيب بن الخصيب ، ديوان صلاح عبد الصبور ص 259 .
- (22) ديوان صلاح عبد الصبور : ص 263 .

- (23) د. يسري العزب : مذكرات الصوفي بشر الحافي , دراسة نقدية , مجلة ابداع , العدد الثاني عشر , السنة الثالثة ديسمبر 1985 ص20.
- (24) الكركي : طائر كبير اغبر اللون طويل العنق والرجلين ابتر الذنب قليل اللحم باوي الي الماء . ج . كركي . انظر منجد الطلاب , دار المشرق , بيروت ط 33 , ص 639 .
- (25) د. لويس عوض: الثورة والادب, الكتاب الذهبي (روزا اليوسف) يوليو 1971, ص 99 .
- (26) ديوان صلاح عبد الصبور ص 294 .
- (27) قصيدة " حديث في مقهى " ديوان صلاح عبد الصبور ص 319 .
- (28) قصيدة " رؤيا " ديوان صلاح عبد الصبور ص 325 .
- (29) قصيدة " وقال في الفخر " ديوان شجر الليل ص 55 ...
- (30) قصيدة " حوار " ديوان الابحار في الذاكرة ص 33 .
- (31) ديوان " الابحار في الذاكرة " ص 43 .